أم سعد الأنصارية

رضي الله عنها

obeikandl.com

obeikandl.com

أم سعد الأنصارية

قال لي ولدي: ومن التي بشرت بالجنة أيضاً يا أبي؟

قلت: إنها أم سعد الأنصارية واسمها: كبشة بنت رافع والدها: رافع بن معاوية، وأمها: أم الربيع بنت مالك، وأما زوجها فيدعى: معاذ بن النعمان من بني عبد الأشهل، وأحد سادة الأوس المرموقين، وقد أنجبت له كبشة أربعة من الذكور وهم: سعد، وعمرو وإياس وأوس وبنتين هما: عقرب، وأم حزام.

قال: كيف أسلمت كبشة بنت رافع يا أبي؟ ومتى تم ذلك؟

قلت: كان وفد من رجال المدينة قد توجّه إلى مكة، وكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل والوفود، ويدعوهم إلى الدخول في دين الإسلام، فبعضهم كان يرضاه، وبعضهم كان يأباه، ومن يرد الله به خيراً يوجهه إلى هداه.

ولما التقى رسول الله ﷺ بوفد المدينة وكان فيهم أبو أمامة ويدعى: أسعد بن زرارة عرض عليهم ما جاء به من عند الله، وتلا عليهم شيئاً من آيات القرآن، فهفت قلوبهم إليه، وأعلنوا إسلامهم بين يديه، وسألوه أن يرسل معهم أحد أصحابه عند عودتهم إلى المدينة حتى يعلم أهلها القرآن، وينشر تعاليم

obeikandl.com

الإسلام بينهم.

واختار رسول الله ﷺ واحداً من أصحابه الكرام شاباً مشرق الطلعة، فصيح اللسان، عذب التلاوة، يأسر القلوب حديثه، وتنقاد النفوس إليه.

وكان ذلك الشاب مصعب بن عمير سفير رسول الله ﷺ إلى المدينة، وفيها نزل مصعب ضيفاً على أسعد بن زرارة وبدأ الناس يفدون إليه ليعلمهم أحكام الدين الجديد.

وذات يوم، خرج أسعد ومصعب إلى أحد بساتين المدينة، وفيما كانا يتحدثان إلى بعض الغلمان، رآهما سيدا الأوس يقال لأحدهما: أسيد بن حضير، وللآخر: سعد بن معاذ، فقال سعد: ألا ترى يا أسيد ما يجري هناك؟ إني لأخشى أن يفسد هذا الفتى المكي غلماننا، ويستميل إليه ضعفاءنا، فانطلق إليه وازجره ومُره أن ينصرف من ديارنا.

وحمل أسيد حربته، ثم اتجه إلى حيث يجلس أسعد وضيفه، ثم بادر بالسب والشتم، وطلب من مصعب مغادرة المكان.

وقابل مصعب ثورة أسيد وغضبه بهدوء بالغ وتهذيب شديد فقال: أَوَ تجلس فتسمع؟ فإن أعجبك ما سمعت قبلته، وإن ساءك وكرهته انصرفنا عنك، وعدنا من حيث أتينا.

كان أسيد رجلاً عاقلاً، فلم يجد في قول مصعب تعدياً ولا تجاوزاً للإنصاف فقال له: لقد أنصفت، فأسمعني ما لديك، ثم غرز حربته في الأرض، وقعد، حتى إذا انفرجت

شفتا مصعب بأعذب بيان، سمعته الآذان: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣]، تهلَّل وجه أسيد وراح يقول: ما أحسن هذا الكلام! وما أجمله! ماذا علَّي أن أصنع للدخول في هذا الدين؟

قال مصعب: تشهد شهادة الحق فتقول: أشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله ثم تذهب فتطهر جسدك وثيابك، ثم تعود فتصلي ركعتين، وتصبح واحداً من المسلمين، ولم يغب أسيد طويلاً حتى عاد والماء يقطر من رأسه، فعلمه مصعب الصلاة، ثم حمل حربته وعاد إلى سعد بن معاذ وهو في نادي قومه، فقال سعد: أقسم أن أسيداً قد رجع بغير الوجه الذي فارقكم به من قبل، ثم التفت إليه وقال له: ما صنعت؟ قال أسيد: أمرتهما بالانصراف فواعداني بذلك، فقال له سعد: ما صنعت شيئاً، وأخذ الحربة من يده، ثم توجّه إليهما، وبدأهما بالسب والشتم، فصنع به مصعب ما صنعه بأسيد وقال له: أَوَتجلس فتسمع؟ فإن أعجبك ما سمعت قبلته، وإن ساءك وكرهته انصرفنا عنك وعدنا من حيث أتينا.

ورأى سعد السداد في كلامه، فقال له: لقد أنصفت، فأسمعني ما لديك، ثم غرز الحربة في الأرض وقعد، بعد أن علم أن أسيداً فعل به ما فعل حتى يجعله يسمع كلام مصعب بنفسه.

ولما سمع سعد ما تلا عليه من الآيات، قال: ما أحسن هذا الكلام! وما أجمله! كيف الدخول بهذا الدين، فقال له مصعب: تشهد شهادة الحق ثم تُطَهر جسدك وثيابك وتصلي ركعتين فتكون من المسلمين.

obeikandl.com

وبعد أن فعل سعد ما طلبه منه مصعب أخذ الحربة ومضى إلى نادي قومه فقالوا له: نراك عدت بغير الوجه الذي فارقتنا به، فقال لهم: كيف ترون حالي معكم؟ قالوا: زعيمنا وسيدنا، وأرجحنا عقلاً، قال: إن رجالكم ونساءكم حرام عليَّ كلامهم حتى تدخلوا في هذا الدين الذي يتحدث عنه سفير رسول الله ﷺ مصعب بن عمير، وذهب الناس إلى بيوتهم، ولم يطلع الصباح على أحد من بني عبد الأشهل ـ رجلاً كان أو امرأة ـ إلا وهم من المسلمين، وكانت أم سعد وخالتاه الفارعة أو الفريعة وسعاد وهي: أم أسعد بن زرارة طليعة مسلمات الأنصار.

وكان مصعب بن عمير قد واعد رسول الله ﷺ أن يقابله في موسم الحج التالي عند العقبة، مع جميع المؤمنين من الأنصار.

فلما كان الموعد انطلق مصعب إلى مكة يصحبه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان هما: أم عمارة وأم منيع، فبايعوه بيعة العقبة الثانية، ثم أمرهم أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيباً، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وأكدوا لرسول الله ﷺ أنهم ناصِرُوه على أعدائه، وأنهم أهل الحرب والسلاح كابراً عن كابر، فوعدهم بالهجرة إليهم حين يأذن الله سبحانه وتعالى له، ولما انتهى موسم الحج عاد وفد الأنصار إلى المدينة فرحين بنقبائهم، وراحوا ينشرون دين الله بين أهل المدينة، ويقيمون الصلاة، ويتلون الآيات التي تعلموها، وظلوا مثابرين على ذلك حتى سمعوا صوت المنادي يعلن عن وصول رسول الله ﷺ إلى مشارف مدينتهم، فخرج أهل المدينة، شيباً وشباناً، رجالاً ونساءً وأطفالاً لاستقبال أعظم الضيوف، حتى إذا اقترب

الموكب النبوي المهيب، واكتحلت عيونهم برؤية وجه الحبيب الأعظم ﷺ، كانت أم سعد وأولادها في طليعة المرحبين بمقدمه، وتزاحمت الأيدي الممتدة لتمسك خطام ناقة رسول الله ﷺ القصواء وليجرها صاحب الحظ السعيد ويفوز باستضافة الضيف الكريم لديه.

ويبتسم لهم رسول الله ﷺ، ويشرق وجهه لما أظهروه له من الحفاوة ثم يقول لهم بلطف: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**».

وعند وصول الناقة أمام دار خالد بن زيد المُكَنى: بأبي أيوب الأنصاري، توقفت الناقة، وأسرع أبو أيوب ليحمل متاع رسول الله ﷺ ويدخله داره، وأخذ أهل المدينة يغبطون أبا أيوب وزوجه لهذا الشرف العظيم الذي أحرزاه بنزول سيد الأولين والآخرين ضيفاً عليهما.

قال: وما الذي صنعته كبشة وبنوها بعد ذلك يا أبي؟

قلت: شاور رسول الله ﷺ أصحابه في الخروج إلى لقاء المشركين عند «بدر» ولم يكن عجيباً أن يخرج المهاجرون بعد أن تركوا ديارهم وأموالهم من أجل الله ورسوله، وكرّر رسول الله ﷺ قوله: «**أشيروا عليَّ أيها الناس!**».

وينتصب سعد بن معاذ كأنه الرمح ليقول: لعلك تقصدنا يا رسول الله.

نعم، إن رسول الله ﷺ كان يريد سماع رأي الأنصار ليتحقق من نصرتهم التي وعدوه بها يوم بيعة العقبة الثانية.

ويقول سعد: يا رسول الله، لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا

obeikandl.com

ومواثيقنا، فانهض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، والذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، ولعل الله يريك مِنَّا ما تقرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله.

ويفيض وجه رسول الله ﷺ بشراً وسروراً لما سمع من قول سعد بن معاذ، فيقول للناس: إن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم، وهذه معجزة منه ﷺ إذ أخبرهم بقتلى المشركين قبل أن تبدأ الحرب.

وتودع كبشة ولديها سعداً وعَمراً فيخرجان مع رسول الله ﷺ إلى «بدر».

ويلتقي الجمعان: جمع المسلمين وجمع المشركين، ويبلي سعد وعمرو أحسن البلاء، وتبدأ السيوف المؤمنة بحصاد رؤوس الشرك والضلال، وتفقد قريش صفوة زعمائها، وكبار قادتها وأعز رجالها، كأبي جهل وأمية بن خلف، وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط الذين آذوا رسول الله ﷺ أشد الأذى وألحقوا بالمسلمين العذاب الأليم.

ويرجع المشركون إلى مكة يجرون أذيال الخيبة والعار، بعد أن لاقوا أعظم اندحار، وينقلب المسلمون إلى المدينة وعلى رؤوسهم أكاليل الغار، بعد أن حققوا أكبر انتصار، وقد أنجز وعده لرسوله العزيزُ القهار.

وتخرج كبشة شامخة الرأس لتستقبل فارسيها المغوارين، معتزة بهما، فخورة بمشاركتهما بهذا النصر المبين.

obeikandi.com

قال: وماذا جرى بعد «بدر» يا أبي؟

قلت: لم تُمَلِّم قريش بالهزيمة المنكرة التي أصابتها والخسائر الفادحة التي تكبدتها، فراحت تتحالف مع القبائل وتهيىء العدد والمقاتلين لمعركة الثأر لقتلاها في «أحد».

وكعادته، شاور رسول الله ﷺ أصحابه في الخروج للقاء المشركين في أحد.

ورأى من لم يخرج يوم «بدر» أن يخرجوا ليعوضوا ما فاتهم من خير وثواب، وأَبَى زعيم المنافقين عبد الله بن أبي سلول ومن يأتمر بأمره من أهل الريب والنفاق، وآثروا البقاء في المدينة، لانتظار قدوم العدو إليهم.

ودفعت كبشة بشبليها سعد وعمرو إلى ساحة القتال، بدأت المعركة لمصلحة المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد أمر رماة المسلمين أن يثبتوا في مواقع حددها لهم في قمة الجبل وألا يبرحوها مهما يكن سير المعركة.

وحين رأوا أن المشركين ـ القتلى منهم أو الفارين ـ قد خلَّفوا كثيراً من الغنائم والأسلاب على أرض القتال، تركوا المواقع التي أمرهم رسول الله ﷺ ألا يتركوها لأي سبب كان، وصاروا ينادون: الغنيمة الغنيمة، عند ذلك، رآهم خالد بن الوليد قائد جيش المشركين يومئذٍ فانقض عليهم من خلفهم وروَّى وجنوده سيوفهم من دماء المسلمين؛ لأنهم خالفوا أمر خاتم المرسلين، وسدد «وحشي» إلى سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب حربته فأرداه قتيلاً، وسقط عمرو بن معاذ، وسعد بن الربيع، ومصعب بن عمير، وعمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام وحنظلة الغسيل شهداء على أرض «أُحُد» وأصيب

رسول الله ﷺ بجرح في شفته وكسرت رباعيته، وسال الدم على وجهه الشريف، ثم كانت هزيمة المسلمين الأليمة بسبب مخالفة رماتهم أوامر قائدهم، أعظم قادة الدنيا أجمعين.

ونظر رسول الله ﷺ في قتلى المسلمين وقد مثَّل بها المشركون، ولما رأى ما فعلوه بعمه حمزة بن عبد المطلب وقد استخرجوا كبده، وجدعوا أنفه، ذرفت عيناه بالدموع وقال: «**ولكن حمزة لا بواكي له**».

وحين سمع سعد بن معاذ مقالة رسول الله ﷺ، مضى إلى قومه وأمر النساء أن يذهبن إلى بيت حمزة ويبكينه، وانطلقت كبشة بصحبة نساء الأنصار إلى دار عم رسول الله ﷺ، فلما علم بذلك قال: رضي الله عنكن وعن أولادكن، ثم أمرهن بالعودة إلى منازلهن.

وتقول أم سعد: قال لنا رسول الله ﷺ: «**رحمكن الله، لقد واسيتُنَّ معي، رحم الله الأنصار فإن المواساة فيهم كما علمتُ قديمة**».

وتضيف كبشة: إن النساء كن يبكين شهداءهن ويبدأن بحمزة ابتغاء مرضاة الله ورسوله ﷺ، وحزنت كبشة على ولدها عمرو حزناً بالغاً ولكنها احتسبته عند الله، والتزمت الصبرَ.

ولما كان يوم الخندق غزوة الأحزاب خرج سعد بن معاذ مع رسول الله ﷺ، وكانت عليه درع مقلصة تكشف عن ذراعيه، وأخذ يرتجز بقول حَمَل بن سعدانة الكلبي:

لَبِّثْ قليلاً يشهد الهيجا حَمَلْ
لا بأس بالموت إذا حان الأجل

وكانت كبشة تهيب بابنها سعد وتقول له: الحق يا بني فقد والله أخَّرت، وأصيب سعد بسهم رماه به حِبَّان بن العَرِقَة وهو يقول: خذها مني وأنا ابن العرقة، فقال له سعد: عَرَّق الله وجهك في النار.

ثم دعا الله أَلَّا يميته حتى تقرَّ عينه من بني قريظة الذين خانوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ أن يُمَرَّض سعد في خيمة الممرضة رفيدة الأسلمية قريباً من مقر رسول الله ﷺ حتى يعوده بين حين وآخر.

وأرسل الله الريح على المشركين فقلبت قدورهم وأطفأت نيرانهم وهدمت بنيانهم، فنادى أبو سفيان بن حرب فيهم: يا قوم، لم يعد لنا هاهنا مقام وإني عائد إلى مكة، وتبعه الناس وهم يتجرعون كؤوس الخزي المرير بعد أن فقدوا بعض الضحايا الذين اقتحموا الخندق فقتل بعضهم دونه وبعضهم فيه.

وأمضى سعد فترة يعالج جرحه حتى شارف على الشفاء، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يؤتى بسعد ليحكم في أسرى بني قريظة.

قال سعد: أرى أن يقتل الرجال، وتسبى النساء والذراري، وتؤخذ الأموال، فلما سمع رسول الله ﷺ بحكم سعد قال: حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة ـ سماوات ـ.

ولم يلبث جرح سعد أن انتقض، وساءت حاله، ثم فاضت روحه إلى بارئها، فبكته أمه بكاءً شديداً فقال رسول

الله ﷺ: «**كل باكية تكذب إلا أم سعد**»، ثم غسل وكفن وحمل إلى البقيع حيث وري الثرى رحمه الله رحمة واسعة مع شهداء المسلمين أجمعين، وقال رسول الله ﷺ لأم سعد: «**ألا يرقأ دمعك ويذهب حزنك؟ فإن ابنك أول من ضحك الله إليه واهتز له العرش**».

قال: ومتى بشرت أم سعد بالجنة يا أبي؟

قلت: لما قتل ابنها عمرو مرت برسول الله ﷺ ـ يوم أحد ـ وسعد ممسك بعنان فرسه فقال سعد: يا رسول الله، أمي، فقال رسول الله ﷺ: «**مرحباً بها**»، ثم وقف وعزَّاها وقال: يا أم سعد أبشري وبشِّري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعاً وقد شفعوا في أهليهم، قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟

وهكذا شملت البشرى أمهات الشهداء وأزواجهم وأخواتهم. رحم الله كبشة، لقد قدمت للإسلام شهيدين أغرَّين، وجمعها معهما في جنة عرضها السمٰوات والأرض، ونِعم أجر العاملين.